خطتا الحركة الوطنية في مواجهة الحرب الأهلية اللبنانية

متعاونين على دفع الاذى عن كرامتهم وسيادتهم وتاريخهم وحضارتهم ضد اليسار المخرب) (٩) .

ان نظرة البورجوازيين الى الحرب نظرة غير علمية لانها غير موضوعية . أما الماديين الديالكتيكيين فينظرون الى الحرب نظرة موضوعية علمية تؤكد على (ان الحرب ليست هدفا في حد ذاتها وانما هي وسيلة من وسائل السياسة) (١٠) . التي تنتهجها طبقة او طبقات معينة لتحقيق اهداف معينة، وبحكم كون (السياسة هي الفكر ، اما الحرب فهي الوسيلة فقط وليست عكس ذلك ، فلا يبقى غير اخضاع وجهة النظر العسكرية لوجهة النظر السياسية) (١١) . ولكن لا بد من الاعتراف ، بأن تعريف الحرب من وجهة نظر علمية يعبر عن نفسه بصيغ متعددة رغم وحدة الموضوع والجوهر . فالموسوعة الفلسفية تقول ان الحرب هي (الصراع المسلح كوسيلة لتحقيق سياسة طبقة ما) (١٢) لان (الحرب ظهرت بسبب سيادة الملكية الخاصة وسياسة الطبقات المستغلة - بكسر الغين .) (١٣) ، وعند النظر الى الحرب لا بد من التفريق (بين نوعين من الحروب : حروب غير عادلة وحروب عادلة . فالحرب التي تواصل سياسة الطبقات المستغلة - بكسر الغين - ونوغية حكمها ، ونضيف الى ثروتها ، هي حروب غير عادلة . أما الحروب التي تهدف الى تحرير الشعب من القهر الطبقي والقومي فهي حروب عادلة) (١٤) .

(ان التاريخ لم يشهد « الا نوعين من الحروب ، هما : حرب عادلة وحرب غير عادلة ، ونحن نؤيد الحرب العادلة ونعارض الحروب غير العادلة ، وكل الحروب المعادية للثورة هي غير عادلة ، وكل الحروب الثورية هي عادلة») (١٥)

ان الضروره تقتضي دراسة كل حرب على حدة من وجهة نظر مادية ديالكتيكية ، وان يحدد طابعها ، ان كان تقدميا او غير تقدمي ، وطنيا او غير وطني ، على ضوء تحديد محتوى الحرب نفسها والاهداف التي ترمي الى تحقيقها والطبقة او الطبقات التي تقودها ، لذلك تعتبر الحروب وطنية وتقدمية ، رغم الاهوال والكوارث التي تسببها ، اذا كان هدفها خدمة الجماهير الشعبية ودفع حركة التطور والتقدم الى امام بتحطيمها انظمة رجعية كالاتوقراطية والقنانة او الانظمة المستبدة التي تسبب الضرر للجماهير الشعبية ولحركتها التقدمية .

ان عدالة الحرب وشرعيتها ينبغي ان تربط بتقدميتها . اذ (... توجد حروب عادلة وحروب جائرة ، تقدمية ورجعية ، حروب تخوضها الطبقات الطليعية او الطبقات الرجعية ، حروب تخدم ترسيخ النير الطبقي وحروب تخدم الاطاحة به .) (١٦) ، لذلك فان المقياس العلمي لتحديد طابع الحرب هو : تقدميتها ان كانت عادلة ، ورجعيتها ان كانت غير عادلة .

(ان طابع الحرب «الرجعي او الثوري» لا يتوقف على معرفة من ذا الذي هاجم وأية بلاد هي مقر «العدو» ، بل على ما يلي :

اية طبقة تشن هذه الحرب ، ما هي السياسة التي تمثل الحرب امتدادا لها (١٧) .

أما مؤلفو « الماركسية - اللينينية » فيقولون :

(ان الحرب هي وسيلة حل التناقضات التناحرية للتطور الاجتماعي في المجتمع باستخدام العنف) (١٨) ، لان (الحرب ، كظاهرة اجتماعية - سياسية خاضعة للاهداف السياسية لدى طبقات معينة، قد ظهرت لاول مرة في المجتمع الاستغلالي . انها نتاج المجتمع الطبقي التناحري ومرافق دائم له .) (١٩)

واذن ، فان الصيغ التي تحدد تعريف الحرب من وجهة النظر العلمية ، متعددة رغم وحدة المضمون والجوهر ، لذلك فاننا نفضل اعتماد التعريف التالي :

(ان الحرب هي عنف مسلح ، وصراع مسلح منظم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، والدول والقوميات بغرض الوصول الى اهداف سياسية محددة.) (٢٠)

مما تقدم يتضح (ان الحرب جزء من كل ، وهذا الكل هو السياسة)(٢١)، و (ان المسألة الاساسية عند تحليل وتقدير قيمة الحرب ، يجب ان تكون البحث عن ماهية الطبيعة الطبقية للحرب موضوع الدراسة ، وما هي الطبقات التي تديرها ولاي اهداف تدار ، وما هي الطبقات التي قامت بالتحضير لها وتوجيهها .) (٢٢)

(من هنا يمكن الوصول الى استنتاج هام ، مؤداه ان الحرب باعتبارها امتدادا للسياسة الطبقية تتميز دائما بخاصية طبقية . وكل حرب ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظام السياسي الذي تنبع منه) (٢٣) ، و (الهدف السياسي يحدد طبيعة الحرب ، وما اذا كانت وطنية او غير وطنية) (٢٤) ، لذا (ينبغي ان ندرس السياسة قبل الحرب ، السياسة التي تفضي وافضت الى الحرب .) (٢٥)

بعد هذا العرض الذي يتضح منه ان للحرب ، اية حرب ، طابعا طبقيا ، يتحدد مضمونه ، ان كان وطنيا او غير وطني ، من خلال معرفة الطبقة او الطبقات التي تخطط للحرب وتقودها اولا ومن خلال تحديد الاهداف التي تشن الحرب من اجلها ... بعد هذا العرض ، علينا ان نجيب على السؤال الاخر : ما هي الحرب الاهلية وكيف نحدد طابعها ؟

■■ طابع الحرب الاهلية الطبقي

ان الحديث عن الحرب الاهلية ، هو اولا جزء من الحديث عن الحرب بصورة عامة باعتبارها ظاهرة اجتماعية - سياسية ، وهو ثانيا ، لا يعني الصراعات والتناحرات والقتال الذي يحدث بين القبائل والعوائل والجماعات بسبب الثأر او الاعتبارات الاخرى التي لا ترتبط بأهداف سياسية ، فهذه الصراعات مهما كانت شدتها ، لا تعدو عن كونها عراكا وليست حربا اهلية . كما ان مفهوم الحرب الاهلية لا يشمل كل صدام مسلح قد يقع بين الجماهير واجهزة القمع الرسمية . فهناك العديد من الاشتباكات المسلحة التي تحدث بين البوليس والمتظاهرين او المضربين وبين الجيش وغيره من ادوات القمع الرجعية ، كحوادث مزارعي التبغ او مزارعي عكار او عمال غندور مع الجيش ، او كحادث اصطدام المتظاهرين في الثالث والعشرين من نيسان ١٩٦٩ في بيروت ، قد تحدث مواجهات واصطدامات دامية كهذه بين الجماهير واجهزة القمع ،ولكنها لا تعتبر حربا اهلية ، الا اذ كانت حلقة في سلسلة احداث ووقائع اخرى تؤدي الى نشوب الحرب الاهلية ، كحادثة السادس والعشرين من شباط عام ١٩٧٥ في صيدا ، او حادثة الثالث عشر من نيسان من العام نفسه ، اذ كانت هذه الحوادث بداية للحرب الاهلية اللبنانية . فمع ان الحرب هي نتيجة لتراكم الصراعات ، الا انها تؤرخ بزمن الوقائع الحربية عـــادة .

ان الحرب الاهلية كما يعرفها لينين هي (... اكثر اشكال الصراع الطبقي حدة حيث يصل عدد من الصدامات والمعارك الاقتصادية والسياسية ، المتكررة المحتدمة ، المتسعة المشتدة الى حد تحول هذه الصدامات الى قتال مسلح لطبقة ضد طبقة اخرى .) (٢٦)

واذن ، فاننا نتحدث عن الحرب التي تنشب داخل قطر معين بين صبقاته الاجتماعية نتيجة تصاعد التناقضات فيما بينها لدرجة التفاقم الذي يخرج تلك التناقضات عن نطاق السيطرة والتحكم المفروض عليها قبل تفجرها.

ان الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعيـــة - سياسية ترجع الى العهود السحيقة من التاريخ . فمنذ انتقال المجتمع البشري من المشاعية الى العبودية ووقوعه فريسة للتناقضات الطبقية ... منذ ذلك التاريخ وهذا المجتمع يعاني من ويلات الحروب وكوارثهـــا !

لا شك في ان المقارنة بين عصر المشاعية اللاطبقي البدائي وبين عصرنا الراهن ،تظهر تقدما هاما استطاعت البشرية تحقيقه على امتداد الاف السنين. بيد ان صورة هذا التقدم الذي تحقق تبدو مخضبة بالدم ومعمدة بالالام التي سببتها الصراعات الطبقية العدائية التي كانت وما تزال تنشب في كل مرحلة من مراحل التطور ، لدرجة يبدو معها ان ثمن ما تحقق كان باهظا جدا . وقد قال عنه ماركس انه يشبه (الصنم الوثني الذي لم يكن يرغب في احتساء العصير الا من جماجم القتلى .) (٢٧) ، حقا ان التاريخ يكاد يكون اقسى من جميع الالهة ، حيث يجر عربته المظفرة عبر تلال الجثث ليس فقط اثناء الحرب ، بل وفي فترات التطورات الاقتصادية « السلمي . ») (٢٨)

هذه هي سنة التطور التي جعلت من صراع الطبقات محركا للتاريخ وصانعا له . ان وجود طبقات متصارعة متقاتلة ووجود دولة تمثل اداة الطبقات الرجعية الحاكمة لقمع الطبقات التقدمية المحكومة ... ان هذا كله من شأنه ان يؤدي الى الحروب والحروب الاهلية .

لا ريب في ان الحروب تختلف عن بعضها البعض باختلاف ظروف نشوبها والاهداف التي شنت من اجل تحقيقها ، والنتائج التي اسفرت عنها ، وانواع الاسلحة المستخدمة فيها ، بيد انها تتسم جميعا بطابع طبقي ، بغض النظر عن مضمونه سواء كان تقدميا او رجعيا . ولذلك فان المسألة الاساسية - كما مر معنا - من وجهة نظر الماركسية - اللينينية ، عند تحليل الحرب وتقييمها تتمثل في معرفة الطبيعة الاجتماعية - السياسية للحرب ، لان هذه المعرفة تعني كشف جوهر الحرب الطبقي . وبعبارة موجزة (ان الطابع الطبقي للسياسة يحدد كذلك الطابع الطبقي للحرب) (٢٩) ، بحكم كون الحرب هي امتداد للسياسة واستمرار لها بوسائل العنف . ولكن لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ، ان طابع الحرب يمكن ان يكون متشابها بالنسبة لكلا طرفي الحرب ، عندما يكون المضمون السياسي لديهما متشابها كما هو شأن الحروب بين الطبقات والادم الرجعية ، ولكن طابع الحرب يكون متناقضا ومتباينا ، اذا كانت الحرب عادلة بالنسبة لطرف وجائرة بالنسبة لطرف اخر. ولا بد ان نأخذ بعين الاعتبار ايضا ان مضمون الحرب قد لا يبقى ثابتا . اذ يحتمل ان يتغير اثناء مجرى الحرب بسبب امكانية حلول طبقات تقدمية محل الطبقات الرجعية ، او بالعكس ، وتبعا لذلك فان طابع الحرب نفسه يتغير ، من رجعي الى وطني ، حين تستطيع الطبقات الثورية استغلال الحرب للاطاحة بسلطة الطبقات الرجعية والحلول محلها . ورغـم ان الحـرب تحدد بتواريخ بدء العمليات الحربية وانتهائها كما مر آنفا ، بيد انها اي الحرب استمرار للصراع الطبقي بين الطبقات ، من هنا تتجلى الحقيقة القائلة ، بأن الحرب بقدر ما تكشف عن عمق التناقضات وتفاقمها فانها تشدد ، وربما بقدر اكبر من وتيرة الصراع الطبقي وترفع درجة تفاقمه الامر الذي قد يؤدي الى انهيار كل ما هو رجعي ومتعفـن .

ان الصراع الطبقي العدائي هو القانون الذي يحكم تطور المجتمعات الطبقية ، ولكن مسؤولية احتدامه وتفاقمه وتفجره تقع على عاتق الطبقات الرجعية الحاكمة . فمع ان نوعية درجة الصراع بين الطبقات الحاكمة وبين الطبقات المحكومة ، تتوقف على سلوك طرفي الصراع معا ، اذ يلعب كل طرف من المتضادات المتصارعة والمتحدة في آن معا ، دوره في تحديد نوعية درجة الصراع ومستوى احتدامه ... مع ذلك فان الطبقات الحاكمة تتحمل مسؤولية تفاقم التناقضات واحتدامها ، بحكم وجودها في مركز المسؤولية والسلطة ، فحين تستجيب لدواعي التطور وتلبي متطلباته ، فانها تحول دون تفاقـم التناقضات ، بينما يؤدي امتناعها عن تلبية حاجات التطور ومقتضياته الى دفع التناقضات نحو الاحتدام والتفجر . ولكن لا بد من الاعتراف بأن مسألة تلبيـة مستلزمات التطور وتوفير حاجاته ، مسألة صعبة ، وليست بمثل هذه البساطة التي تظهر من الكلام المجرد ، وليس بوسع اية طبقة حلها بالشكل الذي يتلاءم مع طبيعة التطور واحكام قوانينه الموضوعية ، ذلك ان قدرة كـل طبقة من الطبقات لها حدود معينة على العطاء ومراعاة حاجات التطور ، لا تستطيع تجاوزها بسهولة وعن طيب خاطر ورغبة . وعلى سبيل المثال فان قدرة الطبقة العاملة على العطاء ودفع التطور الى امام وقيادته باطراد متواصل ، قدرة متناهية لا حدود لها ، فهي الطبقة الثورية الوحيدة الى النهاية من بين جميع الطبقات . ولديها الاستعداد التام للتخلي عن ذاتها الطبقية والغائها ، الامر الذي يجعلها قادرة على قيادة التطور من مستوياته الدنيا الى اعلى المستويات واكثرها تقدما . ولكن لا بد من الاعتراف بأن للطبقة العاملة مصلحة في كـل ذلك .فمن مصلحتها ان تحل الطبقات ويلغى وجودها لكي يتحرر المجتمع من الانقسام الطبقي ويصبح كل فرد فيه عاملا لا يملك غير قوة عمله ولا يستغل غيره . وهي ، اذ تقوم بتحقيق هذه العملية التي يقتضيها التطور الاجتماعي نحو الشيوعية ، لا تفقد شيئا لانها لا تمتلك ما يمكن ان تخسره من جراء الغاء الطبقات . لذلك فانها ليست مستعدة للقبول بفكرة الغاء الطبقـات ، فحسب ، وانما هي تناضل من اجل تحقيق هذه الفكرة ، لان وجود الطبقـات في المجتمع يشكل عائقا يحول دون قيام مجتمعها الشيوعي الذي يعتمد على « مبدأ من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » .

ان هذه القدرة اللامحدودة التي تمتلكها الطبقة العاملة ، لا توجد عند اية طبقة اخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فان قدرة الطبقة البورجوازيـة على العطاء ودفع التطور الى امام محدودة بحدود مصالحها الطبقية الضيقة المتمثلة بامتلاكها لوسائل الانتاج ورغبتها في الحصول على اكبر قدر ممكن من الثروة الاجتماعية وسعيها المتواصل لتحقيق هذه الرغبة المتنامية الجشعة ، وعدم استعدادها للتخلي عنها والتنازل عن الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي يوفرها لها مركزها في السلطة ، لذلـك فان قدرتها على العطاء وقيادة التطور الاجتماعي الى امام محدودة بحدود مصالحها الطبقية الضيقة ، الامر الذي يدفعها للوقوف ضد كل تقدم يضر بمصالحها عند مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع ، دفعا يؤدي الـى نمو التناقضات واشتداد وتيرها لدرجة تجعل من الصعب السيطرة عليها والتحكم فيها .

مما تقدم يتضح ان المجتمع الطبقي معرض للمرور بمراحل احتـدام التناقضات وتفجرها لدرجة قد تؤدي الى حرب بين طبقاته المتصارعة ، اي الى حرب اهليـة .

واذن ، فان اشتداد الصراع الطبقي وتعاظم احتدامه وتفاقمه ، قـد يدفع الى نشوب الحرب الاهلية ، كما هي الحال القائمة في لبنان منـذ اكثر من سنة ونصف السنة . لذا يصح القول : (ان الحرب الاهلية هي صـراع مسلح بين الطبقات المتناحرة داخل البلد ، صراع بوسائل العنف من اجل سلطة الدولة . وهي من حيث مضمونها السياسي تقدمية عادلة تواصل النضال الثوري للطبقات المضطهدة في سبيل تحررها الاجتماعي من جهة ، وهي من الجهة الاخرى جائرة تستهدف الردة واعادة الطبقة الرجعية الـى السلطة او ترسيخ سيطرتها السياسيـة .) (٣٠)

ولان الحرب الاهلية امر وارد ومحتمل الوقوع في المجتمعات الطبقية ، ولان